



المهذب ، ولكننا نفيناها إذ سُئلنا عنه ، فنحن نعلم أن العقاد لا يرضى اليوم أن يكتب مثل هذا الذى كُتِبَ عن الرافعى . ولقد ساء ظن امرئ بالعقاد ألا تكون للموت فى نفسه حرمة ، حتى يكون هو يعين عليه أو يرتضيه أو يسكت عنه إلا سكوت العَصَبِ والاستهانة .

فنحن إذ نكتب فى ردِّ كلام هذا الأستاذ الفاضل سيد قطب لا نبغى أن نسدِّدَ له الرأى فيما يحب أن يرى ، فما علينا ضَلَّ أو اهتدى ، ولا أن نقيم مذهب الرافعى على أصله وقد ذهب سببُه وبقي أدبه ؛ ولا أن نسوء العقاد حفيظة تنوارثها له عن الرافعى أو من ذات أنفسنا ، فما من شيمتنا مثلُ ذلك ؛ كلاً ، بل نكتب لنميط الأذى عن حُرْمِ الموت ، وكفى بالموت حقاً وجلالاً .

ورحم الله الشعبى فقد كان يقول : « تعايش الناس زماناً بالدين والتقوى ، ثم رُفِعَ ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم ، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس اليوم إلا بالرغبة والرهبة . وأظنه سيحجى ما هو أشد من هذا » . ولقد جاء وفات ما نحن فيه ظنون الشعبى . فما يتعايش الناس اليوم إلا بتلَبِّ الموتى !

وإلا فما الذى رمى فى صدر الأستاذ سيد قطب بهذه الغضبة الجائحة من أجل العقاد ؟ ألم يكتب الرافعى للعقاد يوم كان يملك يكتب ويقول ؟ أو لم يكتب العقاد للرافعى ما كتب ؟ ثم نامت الثائرة ما بينهما زماناً كان حده الموت . يقول الأستاذ : إنه - هو لا العقاد - « كان مستعداً للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء - يعنى الرافعى ثم مخلوقاً - أدبه ! بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ... » . أفكان كلام سعيد العريان - وهو يؤرخ أحقاداً قد سلَّها الموت إذ سلَّ أسبابها - هو الذى أثار هذا الحىّ المستعد للثورة على ذلك الميت العاجز عن دفع الثورة ؟ ثم ما الذى يحمله على أن يُلبس هذه الثورة جلد النقد ؟ والعجب أن يثير ما كتب « سعيد » حياً ليس شيئاً فى الخصومة بين الرافعى والعقاد ، وهو ليس يثير العقاد أحدَ طرفى الخصومة ، وهو الذى يملك أن يقول لسعيد أخطأ أو أصاب ... ! أشهد أن ما بالأستاذ قطب النقد ، ولا به الأدب ، ولا به تقدير أدب العقاد أو شعره . فما هو إلا الإنسانُ وجهٌ يكشفه النور ويشف عما به ، وباطنٌ قد انطوى على ظلماته فما ينفذ إلى غيبه إلا علمُ الله .

وأنا أقدم بين يدي كلامي حقيقةً لا بد من تقريرها عن الرافعي والعقاد ، وذلك أن الرافعي - رحمه الله - لو كان يرى العقاد ليس بشيء البتة ، وأن أدبه كله ساقط ذاهب في السقوط ، وأنّ وأن ... مما كان يكتب ليغيب به العقاد من جراء العداوة التي ضريت بينهما - لما حمل الرافعي عناء الكتابة في نقد العقاد وتزييف أدبه وإبطال أصل الشعر في شعره . ولو كان العقاد يرى الرافعي بعض رأيه الذي كتب لما تكلف الرد على الرافعي ولا التعرض له . وكم من رجل كتب عن الرافعي وعن العقاد ونال منهما وأوجع ! ولأنه ليس يدخل في حسابهما ، ولا يقيمان لأمثاله وزناً ، ولا يعبان بقوله ونقده وثورته - فقد تركاه يقول فيكثر فيملُ فيسكت . ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذي كان بين الرافعي والعقاد .

فالرافعي والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتهما ، كلٌّ في ناحيته وغرضه ، وأفنيا الليالي والأيام والسنين في ممارسة ما هو فيه وإليه ، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه ، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر . فلما كانت العداوة بأسبابها بينهما بدأت قوّة تعارض قوة ، ورأى يصارع رأياً ، وكان في كليهما طبيعة من العنف والغرام<sup>(١)</sup> والحدّة ، وولع العقاد بإرسال العبارة حين يغضب على هيئتها صريحة لا صنعة فيها ، وأغرى الرافعي بالسخرية والمبالغة في تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه على طريقة من الفن ؛ فمن ثمّ ظهرت العداوة بينهما في النقد . وفي أذيلها أذى كثير وغبارٌ ملؤه القواذع والقوارص من اللفظ ، وعلى جنباته صورٌ ينشئها أحدهما لصاحبه للكيد والغيب والحفيظة ، لا يراد بها إلا ذلك . ولقد شهدت أن الذي كان يكتبه الرافعي عن العقاد لم يكن عندي مما يحملني على الحط من منزلة العقاد التي كان ينزلها في نفسه ، بل أستيقن أن الذي يكتبه إنما يراد به النيل من غيب العقاد لا من العقاد نفسه . وعلى مثل ذلك كنتُ أجد ما يكتبه العقاد عن الرافعي ، فلم يكن نيل العقاد من الرافعي - وأنا أحبه - مما يحملني العداوة له أو يدفع بي إلى الغيب والحنق والثورة .

وخليق بنا وبآدابنا أن نطوى الآن سيئة رجلين قد تفارط أحدهما في غيب الله . وبقي الآخر تحوطه الدعوة الصالحة بطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل .

(١) الغرام : الشدّة والبأس .

والكلمة الأولى من كلمتى الأستاذ سيد قطب ، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعى - أو كما قال - عن نفى الإنسانية من ذلك الإنسان رحمة الله عليه ، وخلوه من النفس ، وفقدانه الطبع ، وفقره إلى الأدب النفسى - وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه ، وتهافت عليه حده - وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكياً قوى الذهن ، ولكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية ، وأن أدبه كان أدب الذهن لأدب الطبع ، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، ولكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية ، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى ... وأسمع جعجعةً ولا أرى طحناً<sup>(١)</sup> .

وأنا كنت أنتظر بالأستاذ أن يأتى فى كلمته الثانية بشيء من النقد يُنسى إليه ما قدم فى الأولى من سوء العبارة وشُنعة<sup>(٢)</sup> اللفظ فى ذكر الرافعى الميت ؛ ولكن خاب الفأل ، وجاءت الثانية تدل من يَعْقل عن الدلالة البينة ، على أن هذا الأستاذ الجليل لا يزال يستملى ما يكتب من بغضائه . وهان شيئاً أن يكره الأستاذ الجليل رجلاً كالرافعى حتى يأكله السُّل من بغضه ؛ ولكن الأمر كل الأمر حيث ذهب يزعم فيما يكتب أن هذه البغضاء التى يستملى منها هى النقد ، وأن أحكامه على الرافعى إنما هى أحكام قاضٍ ، لزم المتهم حتى أنطقه وأشهد عليه لسانه ، فاستوعب كلامه واستنبط الحجة عليه من ألفاظه ، واستوثق للتهمة من قوله ، ثم بنى (الحجيات) من فحوى عباراته ، ثم حكم وما حكم على المتهم إلا كلامه ، ولا شهد عليه إلا لسانه .

فلهذا كان علينا لزماً أن ننظر فى الذى أتى من كلام الرافعى . ثم قوله فيه ، واستنباطه الدلائل منه ، وتحليله نفس الرافعى من لفظه حتى جعله مستغلق الطبع مسلوب العقيدة ، ثم هو فوق ذلك لا يزال يبدئ ويعيد فى كلامه ذكر أصدقاء الرافعى وأصحابه ويسخر منهم ويتحداهم ، ويحملهم على مركب وعر ، ويضطرهم بين حُطَّتى خَسَفِ<sup>(٣)</sup> فى أحكامه على الرافعى ، ويخيرهم أن يختاروا

(١) طحنا : الطَّخْن : الطَّيحين ، فِعيل فى معنى مَفْعول أى المَطَّحون ، « أسمع جعجعةً ولا أرى

طَحْنَا » مَثَلٌ .

(٢) شُنعة : الشُّنعة ، شُنْع الأمر شُناعةً وشُنعا وشُنوعاً ؛ قَبِيحٌ ، فهو شَنِيعٌ ، والاسم : الشُّنعة .

(٣) حُطَّتا خَسَفٌ : أمران فيهما الهوان والبلاء والمكروه . وجاءت هذه العبارة فى شعر عبد الله

ابن الرِّبْرِير ( انظر ابن سلام : ١٧٦ ) .

للرافعي طرفًا من طرفين يحسب أنه يلزمهم شناعة شناعته التي سمّاها أحكامًا على  
الرافعي . وستتولج فيما لا نحب ، لا كرامةً للأستاذ الجليل أو استجابة لدعائه ،  
بل لنميط الأذى عن نفسٍ مطمئنة لحقت بالرفيق الأعلى راضية مرضية .

ولولا أن يُقال هَجًا نميرًا      ولم نَسْمَع لشاعرهم جوابا  
رغبنا عن هجاء بني كُليب      وكيف يُشائِم الناس الكلابا

\* \* \*